المصرية ماجدة علي تسرد «بنات أفكارها» في لوحات موحشة

القاهرة – يتواصل حتى الحادي والعشرين من أغسطس الجاري بقاعة الباب سليم بمتحف الفن المصري الحديث بدار الأوبرا المصرية معرض الفنانة المصرية ماجدة علي المعنون بـ"بنات أفكاري"، والذي تعود من خلاله علي إلى العروض الفنية بعد انقطاع.

والمعرض يضم خمسة وثلاثين لوحة فنية تصوير زيتي على القماشة بمقاسات مختلفة، تجسّد فكرة في وجدان الفنانة، حيث ترى أن الروح تسافر أثناء النوم وتجوب أماكن مألوفة وأماكن غير معروفة، وتلتقي بأرواح فارقت الحياة أو على قيد الحياة، وتعود إلى الحياة الواقعية بعد صحوها، محملة بحكايات وصور.

وعن المعرض قال الفنان التشكيلي المصري طه قرني "هو معرض نوعي جدا ومختلف جدا، يعطي إشارة قوية لقراءة العمل التشكيلي برؤية جديدة وموثيقة مغايرة، وهذا ما نفتقده قليلا في الحركة التشكيلية المصرية، وهذه الحالة أوجدت متغيرا كبيرا، استطاعت الفنانة أن تبني عليها مفردات جديدة، وأرى أن المعرض القادم لها سيكون مختلفا اختلافا كبيرا، فالفنانة تمتلك إمكانيات عالية ومتنوّعة".

بدوره قال محمد إسحاق أستاذ النحت والعميد السابق بكلية التربية الفنية بجامعة حلوان "المعرض تجربة إبداعية في ما يسمى بالبحث عن الذات، البحث عن الذات في العناصر المستخدمة في اللوحات وفي التكوين واللون".

ماجدة علي

الأرواح تعود إلى الحياة الواقعية بعد صحوها، محملة بحكايات وصور

وأضاف "في المعرض مجموعة من الخبرات والتجارب الخاصة بالفنانة من حيث اللون والتجديد الذي تقوم به، إذ تظهر شخصيتها في بناء اللوحة وتوظيف اللون للحصول على العنصر الخاص بها".

وتمزج الفنانة المصرية في لوحاتها الواقع بالخيال لتسرد عبرها أغوار النفس البشرية في حلمها وصحوها، مشكلة من أضغاث أحلامها، ربما، مساحات من التخيّل السريالي الذي يفضي أحيانا إلى الخلط بين ما هو آني وما هو آت دون إقصاء للماضي الذي تستلهم منه مفرداتها التشكيلية المعتمدة أساسا على الملامح الأسطورية للمصريين القدماء.

وفي ذلك يقول الشاعر والباحث الأنثروبولوجي المصري مسعود شومان "المعرض يعدّ مجموعة من المعارض في وقت واحد، فهناك لوحات توجد بينها سمات مشتركة، وأخرى بينها اختلافات يمكن أن تتواجد في معرض آخر، وأيضا وجود البعد الأسطوري والرموز المصرية القديمة، وهيمنة العنصر الأنثوي بمختلف الأشكال".

مؤكّدا "علي استطاعت أن تمزج الملجّ الأسطوري بالملجّ الكاريكاتيري، فالمعرض ثري جدا ومبهج وغني برموزه وألوانه".

ففي كتاب "نقد الحكم" يُعرف إيمانويل كانط الجميل كـ"غرض جميل متنزه عن أيّ هدف"، ويجادل بأن "الجميل هو ذاك الذي يُسعد من دون أن يقوم بوظيفة محددة، أو يروق لاهتمام ما، أو يُرضي رغبات حسية رئيسية. إن تقدير الجميل يتطلب نظرة جمالية مُنقّاة من مثل هذه الغرائز والأغراض الشخصية".

من هنا يمكن القول بأن الالتزام في الفن يتعدّى المضمون إلى الشكل، أي أنه التزام جمالي أساسا. وانطلاقا ممّا سبق يمكننا قراءة لوحات ماجدة علي في سياق إنساني أوسع، أي كتنديد بكل أشكال القمع التي يمكن أن يتعرّض لها الإنسان على أرض الواقع أو في الأحلام/ الكوابيس.

وفي سياق آخر تتجلى صور المرأة في أعمال علي، حيث تظهر المرأة في لحظات الأمل والتأمل وفي لحظات الفرح والحزن والتحرّر والانتظار والقلق وكذلك لحظات الانكسار والقيود.

واختارت الفنانة في لوحاتها تفاصيل مختلفة تحيط بالمرأة مثل السنابل والطيور والأسماك وغيرها بتناغم أصيل لتعبّر عن الأحاسيس المتعدّدة للمرأة بين آمالها وآلامها، انتصاراتها وانكساراتها، سكونها وصخبها.

لوحات الفنانة في المعرض، وإن اختلفت موضوعاتها أحيانا، إلاّ أنها تكمّل بعضها بعضا، فهي بروح واحدة وبتقنية واحدة، كل لوحة تحيل إلى الأخرى، لتبدو لوحات متقاربة وكأنها توأم، فهي تسلسل لفكرة واحدة أرادته الفنانة حلما أقرب إلى كابوس يربكها قبل أن يربك الناظر إلى لوحاتها، في سرد لإكراهات الحياة المعاصرة وأمراضها المجتمعية المتداخلة، وإن أظهرتها بمفردات تشكيلية أسطورية في الغالب.

تشكّل علي لوحاتها بطريقة موجعة، مخيفة ومربكة، كحال كوابيسنا المتداخلة التي تستعيد أرواحا فارقت الحياة أو أخرى على قيد الحياة، أرواح تعود إلى الحياة الواقعية بعد صحوها من غفوة كاذبة، بل من استراحة واهية، محملة بحكايات وصور مرعبة لواقع حياتي مأزوم ما انفكّ يتأزّم أكثر بالأوبئة والكوارث الطبيعية والصراعات الإنسانية التي لا نعرف لها نهاية.

عندما يصبح الواقع لا يطاق يلجأ الإنسان، وخاصة الفنان، إلى الخيال المنقذ والقادر إن جمعه اليقين والعزيمة، على أن يقلب الواقع رأسا على عقب. هكذا تحدّثنا القصص الخرافية، كما تحدّثنا كذلك القصص الواقعية الفجّة التي تخترقها العجائب المنقذة في اللحظة الحاسمة.

لكن لوحات ماجدة علي هي إنقاذ من نوع آخر، لوحات تنقذنا من أكاذيبنا المتجاوزة، أو التي تسعى في السر والعلن إلى تجاوز واقعنا المرير، بالأحلام الوردية التي سرعان ما نكتشف زيفها غداة صحونا مباشرة، لنصدم أنها أحلام موغلة في الوحشة والتوحّش، أحلام عنوانها السراب.

وماجدة علي حاصلة على دكتوراه الفلسفة في الفن، تحديدا في النقد الفني التشكيلي مع مرتبة الشرف الأولى من معهد النقد الفني بأكاديمية الفنون. وهي أيضا باحثة في مرحلة الماجستير قسم الأنثروبولوجيا الثقافية بكلية الدراسات العليا الأفريقية في جامعة القاهرة.

أرواح مسافرة إلى السراب في الحلم واليقظة

قطاف باذخ الفرح (لوحة للفنان الأردني عصام مسرات)

شجرة الزيتون تكرّس أطيافها الفضية في لوحات تعبيرية

أغصان الشجرة المباركة تضيء بزيتها دروب الهوية العربية

لا زالت شجرة الزيتون حاضرة في الأعمال التجهيزية والنحتية والفيديو آرت واللوحات التشكيلية العربية، وقد تخطّت حقول الزيتون في بعض الأعمال كونها مجرد مشهد طبيعي أخّاذ لتصبح كل شجرة من تلك الحقول، شجرة ما فوق واقعية وواقعية فجة على السواء. واقعية بحسيتها وحضورها الباهر وبمرارة صمودها في مآقي الأرض العربية.

شجرة راسخة في مآقي الأرض (لوحة للفنان الفلسطيني سليمان منصور)

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

أذكر أنني في أحد الأيام ذهبت أنا وأصدقاء إلى مدينة صيدا اللبنانية. كنا في فصل الصيف، وكنا في فترة العصر من النهار، أي تلك الفترة التي تكتسي فيها الطبيعة ثوبا رقيقا ووهّاجا ومنعشا في آن واحد، وذلك بعد انقضاء ساعات النهار الصيفية الحارقة.

وخلال الرحلة مرّت السيارة بمشهد لا يمكن وصفه إلاّ أنه غرائبي لشدة ما كانت تصدر عنه طاقة رهيبة وسكون عامر ومُحيّر.

أذكر أنني ذهلت، فابنة مدينة بيروت لم تكن قد رأت من قبل حقل زيتون شاسع يستحم بذهب شمس تشارف على الانكفاء. كانت أوراق الأشجار مخملية يفوح منها عطر الأرض وأكاد أن أشعر بملمسها تحت أصابعي المتمسكة بقبضة باب السيارة.

لم يكن لون تلك الأشجار أخضر، بل فضيا. ولم يكن اللون لونا، بل طيفا أثيريا ينبعث من أوراق الأشجار كلما تدفقت إليها نسمات، بل أنفاس الزمن الذي خرّ متأملا روعة تفاعلها مع الضوء.

يومها فكّرت أنه من المستحيل على أي فنان أن لا "تصعقه" روعة حقل زيتون انطلقت من المشهد الأفقي العام لتطاله فتجتاحه أحاسيس وأفكار متلاحقة.

بين مدرستين

لذلك، ولكثرة ما تملكه شجرة الزيتون من طاقة وما يحمله حقل الزيتون من سكينة وطمأنينة عارمة وجد الزيتون وحقله طريقه بسهولة إلى لوحات الفنانين من كل أرجاء العالم. منهم من رآه، ومنهم من تخيّله وفق صور ومشاهد مصوّرة. وعلى الرغم من وجود فنانين أجانب كثر جسّدوا هذه الشجرة في لوحاتهم، إلاّ أنها وفي غالبيتها لوحات مشهدية / وصفية وليست كما في الأعمال الفنية الفلسطينية والأردنية والسورية واللبنانية، أي أنها ليست حاضرة كحالة، وكانقشاع وكثبات ضرب جذوره الأثيرية في عمق الأرض وإن تلاشت أوراقه أحيانا في عبق السماء العربية.

نذكر هنا كمثال على ذلك الفنان الهولندي فنسنت فان غوخ الذي رسم ربما أهم حقل زيتون على الإطلاق. ولكن بالرغم من تعبيريتها المؤثرة وقدرتها على عكس حالة الفنان المضطربة، فإنها لم ترق إلى أهمية الأعمال التي أبدعها فنانون عرب اشتبكت أغصان أشجار زيتون بأرواحهم وأرواح أجدادهم وامتدت عميقا في تاريخهم وفي مقوّمات عيشهم وقوتهم اليومي.

نذكر من التشكيليين العرب الذين رسموا شجرة الزيتون أو حقولها وأهلها الفنان التشكيلي الفلسطيني سليمان منصور الذي يعتبر رائدا في الفن الفلسطيني، كذلك الفنان والنحات الفلسطيني نبيل عناني الذي أعطى لشجرة الزيتون مكانة أساسية في معظم لوحاته، والفنانة الفلسطينية أحلام فقيه التي تميّزت بزخم لوني تماهت فيه شخوصها لاسيما النساء، مع أشجار الزيتون.

> الفنانون العرب تناولوا شجرة الزيتون بصريا وشعريا، فعمّقوا من قيمتها الرمزية التي تؤكّد مدى انتمائها إلى الأرض

لوحة للفنانة اللبنانية تغريد درغوث

والفنان الفلسطيني تيسير بركات الذي مارس التجريد المقترن بتشكيل برزت فيه أرواح أشجار الزيتون وأشكالها. ومن الفنانين السوريين نذكر الفنانة سميرة بيراوي التي رسمت في إحدى لوحاتها خيمة عائلية تتوسّطها "شجرة الميلاد السورية"، والفنان السوري نزيه نبعة، رسام المرآة الشرقية لاسيما السورية الذي أحاطها، وحمّلها، وزيّنها بطبيعة غنية لم تجرأ على استثناء الزيتون المبارك وأوراقه الفاتنة ولا زيته المُضيء للقناديل، والفنان السوري سرور علواني الذي رسم شجرة الزيتون وكأنها باقة من نور.

ونذكر أيضا من الفنانين الأردنيين الفنان عصام مسرات الذي رسم حقل الزيتون ويوم قطافه بألوان باذخة الفرح. ومن الفنانين التشكيليين اللبنانيين نذكر الفنان جميل ملاعب، رسام الطبيعة اللبنانية والقرى اللبنانية الذي رسم قطاف الزيتون وكأنه عرس جماعي، والفنان الرائد مصطفى فروخ الذي وثّق جمالية القرى اللبنانية وعذوبة شجرة الزيتون وقوتها وثباتها في آن واحد.

ونذكر أيضا الفنان حسان صمد، لاسيما لوحته الباهرة التي حملت عنوان "يوم واحد جيد"، وهي لوحة بمقياس كبير (207/198 سم) تشمخ وسطها شجرة زيتون عملاقة، قربها آثار دخان ناتج عن حريق افتعله "فاعل خير" ما. وبالرغم من بقايا نفايات مهترئة منتشرة هنا وهناك من حولها، يشعّ من اللوحة سكون عجائبي يخطف الناظر إليها، فلا يريد إلاّ البقاء أمامها طويلا.. طويلا.

ومن الفنانين اللبنانيين نذكر الفنانة تغريد درغوث التي قدّمت منذ بضعة سنوات نصا معاصرا جبارا ضمن معرض فردي لها عن أشجار زيتون لبنان.

معرض لم يخرج منه الزائر إلاّ مُثقلا بسؤال متشعّب وهو "أيّ طرف سيكون قادرا على منح السلام وهو لا يتوانى عن أن ينهال على أشجار الزيتون المذكورة في تلموده تقطيعا، وحرقا، واقتلاعا، وسرقة، وتجريفا"؟

رمز وتاريخ

في هذا السياق نذكر أن أشجار الزيتون وجدت منذ أكثر من سبعة آلاف سنة في منطقة شرق البحر المتوسط. ومن ثم انتقلت من بلاد الشام إلى المغرب العربي ومنه إلى إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا.

يشار أيضا إلى أن شجرة الزيتون هي التي باركها الله في الكتب المقدّسة إلى جانب أشجار التين وأقسم بها في القرآن الكريم. وكما تكلّلت شعوب هذه المنطقة ببركة هذه الشجرة باكرا في التاريخ، كذلك اكتست معان مستجدة يعود تاريخها إلى قبيل احتلال الكيان الإسرائيلي لفلسطين امتدادا إلى النكبات العربية المتتالية.

لا يسعنا إلاّ أن نختم قائلين بأن الفن التشكيلي الفلسطيني كما العربي بشكل عام (وإن كان كل بلد عربي يمتلك خصوصية تميّزه عن غيره من الدول العربية الأخرى) تناول أشجار الزيتون بصريا وشعريا، فعمّق من قيمة الذاكرة الجماعية وساهم مساهمة أساسية في الحفاظ على كل الأفكار التي تجسّدها شجرة الزيتون لاسيما الانتماء إلى الأرض.

وهكذا، فدور الفن من هذا المنظار يذكّرنا بكلمات الشاعر محمود درويش التالية "لو يذكر الزيتون غارسه لصار الزيت دمعا". الفن، يُذكّر أشجار الزيتون بتاريخها وأهلها ويحصّن ذاكرة أصحابها إلى أشجار زيتون العودة. ومنها الانطلاق نحو المستقبل.